صلح الحديبية

كان في شهر ذي القعدة ، آخر سنة ست للهجرة .

وسببها أنّ النّبي ﷺ أعلن في المسلمين أنه متوجّه إلى مكة معتمراً ، فتبعه جمع كبير من المهاجرين والأنصار بلغ عددهم ألفاً وأربع مئة تقريباً . وأحرم ﷺ بالعمرة في الطريق ، وساق معه الهدي ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً البيت ومعظماً له .

وأرسل ﷺ وهو عند ذي الحليفة عيناً له من قبيلة خزاعة اسمه بشر بن سفيان ليأتيه بخبر أهل مكة ، وسار النّبي ﷺ حتى وصل إلى غدير الأشطاط ، فأتاه العين الذي كان قد أرسله ، فقال له : « إن قريشاً جمعت لك جموعاً ، وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت ومانعوك ، فقال : أشيروا أيها الناس .. فقال له أبو بكر : يا رسول الله ، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجه له ، فمن صدّنا عنه قاتلناه . قال : امضوا على اسم الله .

ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ فقال له رجل من بني أسلم : أنا يا رسول الله . فسلك بهم طريقاً وعراً بين الشعاب ، وسار النّبي ﷺ وأصحابه حتى إذا كانوا في ثنية المِرار (وهي طريق في الجبل تشرف على الحديبية) بركت به راحلته ، فقال الناس :

حل ، حل (اسم صوت كانوا يزجرون به الجمال) فلم تتحرك ، فقالوا : خلأت القصواء ، فقال ﷺ : ماخلأت ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل ، ثم قال : والذي نفسي بيده ، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ، ثم زجرها فوثبت ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على حُفَيرة قليلة الماء ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه ، وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالريّ حتى صدروا عنه[1] ، فبيما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر معه ، فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا مياه الحديبية ، ومعهم العوذ المطافيل[2] ، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت ، فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم ، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلّوا بيني وبين الناس ، فإن أظْهَرْ فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جمّوا (أي استراحوا) ، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ، ولينفذن الله أمره . فقال بديل : سأبلغهم ما تقول .

---

(١) هذه من رواية البخاري في كتاب الشرط وابن إسحاق وغيرهما . وقد ذكر البخاري في كتاب المغازي هذا الحديث . وقال : إنه جلس على البئر ثم دعا بإناء فمضض ودعا الله ثم صبّه فيها . ثم قال دعوها ساعة ، ثم إنهم ارتووا بعد ذلك . قال الحافظ ابن حجر في الفتح : ويمكن الجمع بينهما بأن يكون الأمران واقعين معاً . وأما حديث أنه ﷺ وضع يده في ركوة ماء فجعل الماء يفور من بين أصابعه فتلك واقعة أخرى غير هذه . وكل ذلك ثابت صحيح .

(٢) العوذ جمع عائذ ، وهي الناقة ذات اللبن والمطافيل الأمهات من النوق إذا كان معها أطفالها . يريد أنهم خرجوا بكل ما يحتاجون حتى لا يرجعوا إلا بعد أن يمنعوا المسلمين من دخول مكة .

فانطلق بديل فحدّث قريشاً بما سمعه من رسول الله ﷺ . فقام عروة بن مسعود يعرض على المشركين أن يأتي النّبي ﷺ فيكلمه في تفصيل ماجاءهم به بديل بن ورقاء . فقالوا له دونك فاذهب .

فذهب ، فكلّمه النّبي ﷺ بمثل ماكلّم به بديلاً ، فقال له عروة : أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ، وإن تكن الأخرى ، فإني والله لاأرى وجوهاً ، وإني لأرى أشواباً من الناس (أي أخلاطاً منهم) خليقاً أن يفرّوا ويدعوك . فقال له أبو بكر رضي الله عنه : امصص بظر اللات أنحن نفرّ عنه وندعه !..

فالتفت قائلاً : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . فقال : أما إنه لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها ، لأجبتك[٣] . ثم جعل يكلّم النّبي ﷺ فكلما تكلّم أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النّبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النّبي ﷺ ، ضرب يده بنعل السيف ، وقال له أخّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ . فرفع عروة رأسه فقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة ، فقال : أي غُدَرْ وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس[٤] ؟

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النّبي ﷺ بعينيه ، قال : فوالله ماتنخّم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كفّ رجل منهم فدلك بها

---

(٣) اليد النعمة ، واليد التي يقصدها عروة ، أن عروة كانت تحمل دية فأعانه أبو بكر فيها بعون حسن .

(٤) أراد عروة بذلك أن المغيرة بن شعبة قتل قبل إسلامه ثلاثة عشر رجلاً فودى له عروة المقتولين .

وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتـدروا أمره ، وإذا توضـأ كادوا يقتتلون على وضوئـه ، وإذا تكلموا خفضـوا أصـواتهم عنـده ، ومـا يحـدّون إليـه النظر تعظيماً له .

فرجع عروة إلى أصحابه فقـال : أي قوم والله لقـد وفـدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجـاشي ، والله إن رأيت ملكاً قـط يعظمـه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ ﷺ محمداً !.. وإنه قـد عرض عليكم خطـة رشد فاقبلوها .

ثم إنهم أرسلـوا إليـه سهيـل بن عمرو ممثـلاً عنهم ليكتب بينهم وبين المسلمين كتاباً بالصلح ، فلما جلس إلى رسول الله ﷺ قال : هـات أكتب بيننـا وبينكم كتـابـاً . فـدعـا النّبي ﷺ الكاتب (وكان الكاتب عليـاً رضي الله عنـه ـ فيما رواه مسلم) فقـال النّبي ﷺ : أكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقـال سهيـل : أمـا « الرحمن » فـوالله مـاأدري مـاهي ، ولكن أكتب بـاسمـك اللهم ، فقـال المسلمـون : والله لانكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فقـال النّبي ﷺ : أكتب بـاسمـك اللهم . ثم قـال : هـذا مـاقـاضى عليـه محمـد رسـول الله . فقـال سهيـل : والله لـو كنـا نعلم أنـك رسول الله ماصددناك عن البيت ولا قـاتلنـاك ، ولكن اكتب « محمـد بن عبـد الله » ، فقـال رسـول الله ﷺ : والله إني لرسـول الله وإن كذبتموني !.. أكتب محمد بن عبد الله . (وفي رواية مسلم : فـأمر عليـاً أن يمحـوهـا ، فقـال عليٌّ لا والله لاأمحـوهـا ، فقـال رسـول الله ﷺ : أرني مكانها ، فأراه مكانها فمحاها) ، فقـال لـه النّبي ﷺ : على أن تخلّوا بيننـا

وبين البيت فنطوف به . فقال سهيل : والله ، لاتتحدث العرب أنا أُخذْنا ضغطـة ، ولكن ذلـك من العـام القـادم وليس مع المسلمين إلا السيوف في قرابها . فكتب . فقال سهيل : وعلى أن لا يأتيك منـا رجل وإن كان على دينك إلا رددتـه إلينـا ، ومن جـاء منكم لم نرده عليكم ، فقـال المسلمون : سبحـان الله ، كيف يردّ إلى المشركين وقـد جـاء مسلماً ؟! (والتفتوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه : أنكتب هذا يـارسول الله ؟! قـال : نعم ، إنـه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنـا منهم فسيجعل الله لـه فرجـاً ومخرجاً)[٥] .

وكانت مدة الصلح بناء على هـذه الشروط ـ على مـا رواه ابن إسحـاق وابن سعـد والحـاكم ـ عشر سنين لا إسـلال فيهـا ولا إغـلال (أي لا سرقـة ولا خيانة) وأنه من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيـه . فتواثبت خزاعة فقالوا : « نحن في عقد محمد وعهـده » . وتواثبت بنو بكر فقالوا : « نحن في عقد قريش وعهدهم » .

ولما فرغ من الصلح والكتابة ، أشهد على الكتـاب رجـالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين .

وفي الصحيحين أن عمر بن الخطـاب قـال : « فـأتيت نبي الله ﷺ ، فقلت ألست نبي الله حقاً ؟ قـال : بلى ، قلت : ألست على حق وعـدونـا على باطل ؟ قال : بلى ، قلت : أليس قتلانا في الجنـة وقتلاهم في النـار ؟ قـال : بلى ، قلت : فلمـاذا نعطي الـدنيّـة في ديننـا إذن ؟ قـال : إني

(٥) مابين القوسين تفصيل لرواية مسلم . والحديث بطوله من لفظ البخاري مع زيادات لمسلم .

رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري . قلت : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ قلت : لا ، قال : فإنك آتيه ومطوف به . فلم يصبر عمر حتى أتى أبا بكر رضي الله عنه فسأله مثل ماسأل النّبي ﷺ ، فقال له يا ابن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يعصي ربّه ولن يضيّعه الله أبداً . فما هو إلا أن نزلت سورة الفتح على رسول الله ﷺ ، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياها . فقال : يا رسول الله ، أَوَفَتْحٌ هو ؟!.. قال : نعم ، فطابت نفسه »[٦] .

ثم إن النّبي ﷺ أقبل على أصحابه فقال لهم : « قوموا فانحروا ثم احلقوا ـ وكرر ذلك ثلاثاً ـ فوجم جميعهم وما قام منهم أحد ، فدخل على زوجته أم سلمة ، وذكر لها مالقي من الناس ، فقالت له : يا رسول الله أتحب ذلك ؟ اخرج لاتكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك : نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل الآخر لفرط الغم .

ثم جاء نسوة مؤمنات (بعد انصرافه إلى المدينة) مهاجرات بدينهن ، بينهن أم كلثوم بنت عقبة ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا جاءَكُمُ المؤمِناتُ مُهاجراتٍ ، فامْتَحِنوهنَّ ، اللهُ أعلمُ بإيمانِهِنَّ فإنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مؤمناتٍ فلا تَرجِعُوهُنَّ إلى الكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ ، ولا هُمْ

(٦) متفق عليه .

رمل فيه النبي عليه الصلاة والسلام كان كذلك . والاضطباع هو جعل الرجل وسط ردائه تحت منكبه الأيمن وطرفيه على منكبه الأيسر . ويسن أن يفعل ذلك أيضاً بين الميلين عند السعي بين الصفا والمروة للاتباع .

غير أن شيئاً من ذلك لا يستحب للمرأة .

ثانياً : ذهب بعض الفقهاء إلى جواز عقد النكاح حالة الإحرام بحج أو عمرة ، اعتماداً على الرواية التي نقلت أنه ﷺ ، عقد على ميمونة أثناء إحرامه .

والذي عليه جماهير الفقهاء أنه لا يجوز للمحرم أن يعقد نكاحاً لا لنفسه ولا وكالة عن غيره مطلقاً[٣٦] . وذهبت الحنفية إلى أنه لا يحرم للمحرم أن يتولى عقد النكاح مطلقاً ذلك لأنهم يفسرون (النكاح) في قوله ﷺ : « إن المحرم لا يَنكح ولا يُنكح »[٣٧] بالجماع .

هذا وقد اعتمر رسول الله ﷺ أربع عمرات وحجّ حجة واحدة روى مسلم بسنده عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عمر كلهن في ذي القعدة إلا التي مع حجته : عمرةً من الحديبية في ذي القعدة ، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة ، وعمرة من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة وعمرة في حجته[٣٨] .

غزوة مؤتة

وقد كانت في شهر جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة . ومؤتة قرية على مشارف الشام ، وهي التي تسمى اليوم : الكرك .

وسببها ما ذكرناه من مقتل الحارث بن عمير الأزدي ، رسول رسول الله ﷺ إلى ملك بصرى ، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره .

---

(٣٦) انظر مغني المحتاج : ٢١٨/٢

(٣٧) رواه مسلم .

(٣٨) مسلم : ٦٠/٥ وروى البخاري نحوه .

فنـدب النـاس للخروج إلى الشـام ، وسرعـان مـا اجتمع من المسلمين ثلاثـة آلاف مقاتل قد تهيؤوا للخروج إلى مؤتة .

ولم يخرج النبي ﷺ معهم ، وبذلك تعلم أنهـا في الحقيقـة ليست بغزوة وإنما هي سرية ، ولكنّ عامة علماء السيرة أطلقوا عليهـا اسم الغزوة لكثرة عدد المسلمين فيها ولما كان لها من أهمية بالغة . وقال لهم رسول الله ﷺ : « أمير الناس زيد بن حارثة ، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب ، فـإن قتل فعبـد الله بن رواحـة ، فـإن قتل فليرتض المسلمون منهم رجلاً فليجعلـوه عليهم[٣٩] . وأوصاهم ﷺ أن يدعوا من هناك إلى الإسلام ، فإن أجـابوا ، وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم » .

قال ابن إسحـاق : « ودّع رسول الله ﷺ وأصحـابـه المسلمين وأمراءهم عند خروجهم من المدينـة ، وفي تلـك الأثنـاء بكى عبـد الله بن رواحـة ، فقالوا له : ما يبكيك ؟ قال : أما والله ما بي حبّ الـدنيـا ولا صبـابـة بكم ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آيـة من كتـاب الله تعـالى يـذكر فيهـا النار : ﴿ وإنْ منكم إلاّ واردُها كان على رَبِّكَ حتْماً مقضيّا ﴾ فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود .

ونـــاداهم المسلمـون وهم يسيرون : صحبكم الله ودفـع عنكم وردكم إلينـــا صالحين . فقال عبد الله بن رواحة :

لكنني أســـــأل الرحمن مغفرة وضربة ذات قرع تقذف الزبـدا

---

(٣٩) رواه البخـاري ، وأحمـد وابن سعـد في طبقـاتـه ، ولكن ليس في البخـاري : فـإن قتل فليرتض المسلمون منهم رجلاً .

أو طعنـة بيـدي حَرّان مُجهزةً بحربة تنفذ الأحشـاءَ والكبـدا
حتى يقال إذا مرّوا على جدثي أرشده الله من غاز، وقـد رشـدا

ولما فصلوا من المـدينـة سمع العـدو بمسيرهم ، فجمعوا لهم : جمع هرقل لهم أكثر من مئة ألف مقاتل من الروم ، وجمع شرحبيل بن عمرو مئة ألف مقاتل آخر من قبائل لخم وجُذام والقَين وبهراء .

وسمع المسلمون بـذلـك فـأقـامـوا في معـان ليلتين يفكرون في أمرهم ، وقـالـوا : نكتب إلى رسـول الله ﷺ فنخبره بعـدد عـدونـا . فشجعهم عبـد الله بن رواحـة وقـال لهم : يـا قـوم ، والله إن التي تكرهـون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة . وما نقاتل الناس بعـدد ولا قوة ، ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحـدى الحسنيين : إما ظهور أو شهادة .

والتقى المسلمون بـأعـدائهم قبيل الكرك ، وقـد اجتمع منهم مـا لا قبل لأحد به من العدد والسلاح والعتاد ، فأخذ اللواء زيد بن حـارثـة فقـاتل وقاتل المسلمون معه حتى قتل رضي الله عنه طعناً بالرماح . ثم أخـذ اللواء جعفر بن أبي طالب فأبلى بلاء عظيماً ، حتى إذا ألحمه القتال نزل عن فرسه فعقرها ثم انطلق يشتد في قتال القوم وهو يرتجز :

يـا حبـذا الجنـة واقترابهـا طيبـة وبـارداً شرابهـا
والروم روم قـد دنـا عـذابهـا كافرة بعيـدة أنسـابهـا
عليّ إذ لاقيتُها ضرابها

وظل يقـاتل حتى قتل رضي الله عنـه ، ضربـه رجل من الروم فقـدّه نصفين ، فوجد في جسمه خمسون طعنة ، ليس منها شيء في ظهره[٤٠] ! .. ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة وانطلق يرتجز قائلاً :

أقسمت يـــا نفس لتنزِلنّـــه لتنزلن أو لتُكرَهِنّـــــــه
إن أجلب الناس وشدوا الرنـة مـــالي أراك تكرهين الجنَّـــة
قد طال ماقد كنت مطمئنـة هـل أنت إلا نطفـــة في شَنَّـــة

ولم يزل يقـاتـل حتى قُتـل رضي الله عنـه . ثم اتفـق النـاس على إمرة خـالـد بن الوليـد فـأخـذ اللواء ، وقـاتل المشركين حتى انهزموا ، فـانحـاز بجيشه حينئذ عائداً إلى المدينة » .

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفر وابن رواحة للناس قبل أن يـأتيهم خبرهم ، فقـال : « أخـذ الرايـة زيـد فـأصيب ، ثم أخـذ الرايـة جعفر فـأصيب ، ثم أخـذ الرايـــة ابن رواحـــة فأصيب ـ وعيناه تذرفـان ـ حتى أخـذ الرايـة سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم » .

وهذا الحديث يدل كما ترى ، على أن الله أيـد المسلمين بـالنصر أخيراً ، وليس كما قال بعض رواة السيرة أن المسلمين انهزموا وتفرقوا ، وعـادوا بعـد ذلك إلى المدينـة . ولعل مقصود الـذين قـالوا هـذا ، أن المسلمين لم يتبعوا الروم ومن معهم في هزيمتهم ، واكتفوا بانكشافهم عن مواقعهم ، خوفاً على

---

(٤٠) رواه البخاري .

المسلمين ، وانقلبوا عائدين إلى المدينة ، ولا شك أنه تدبير حكيم من خالد بن الوليد رضي الله عنه .

قال ابن حجر : وقع في المغازي لموسى بن عقبة ـ وهي أصح المغازي ـ قوله : « ثم أخذه (يعني اللواء) عبد الله بن رواحة فقُتل ، ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد ، فهزم الله العدو وأظهر المسلمين » . قال العماد بن كثير : « ويمكن الجمع بأن خالداً حاز المسلمين وبات ، ثم أصبح وقد غير هيأة العسكر فجعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة ، ليتوهم العدو أن مدداً قد جاء المسلمين . فحمل عليهم خالد فولّوا فلم يتبعهم ورأى الرجوع بالمسلمين هي الغنيمة الكبرى[٤١] .

ولما دنوا من المدينة ، تلقاهم رسول الله ﷺ ، ولقيهم الصبيان يسرعون ، فقال : خذوا الصبيان فاحملوهم ، وأعطوني ابن جعفر ! . فأتي بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه .. وجعل الناس يصيحون بالجيش : يا فرار ، فررتم في سبيل الله .. فيقول رسول الله ﷺ : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله » .

العبر والعظات :

أهم ما يثير الدهشة ، في هذه الغزوة ، تلك النسبة الكبيرة من الفرق بين عدد المسلمين فيها وعدد مقاتليهم من الروم والمشربين العرب ! .. لقد رأيت أن عدد المشركين ومن معهم من الروم قد بلغ ما يقرب مئتي ألف مقاتل ! .. وذلك على ما رواه ابن إسحاق وابن سعد وعامة كتاب السيرة[٤٢] على حين أن عدد المسلمين لم يتجاوز ثلاثة آلاف . ومعنى ذلك أن

---

(٤١) انظر فتح الباري : ٣٦١/٧ و ٣٦٢

(٤٢) انظر طبقات ابن سعد : ١٧٥/٣ وسيرة ابن هشام : ٣٧٥/٢

عدد المشركين والروم قد بلغوا مالا يقل عن خمسين ضعفاً لعدد المسلمين ! ..

وهي نسبة إذا ماتصورتها ، تجعل رقعة الجيش الإسلامي ، أمام حشود الروم والمشركين ، أشبه ماتكون بساقية ماء صغيرة بالنسبة إلى بحر خضم مائج ، هذا إلى ما كان قد جهز به جيش الأعداء من العدة والذخيرة والسلاح ومظاهر الأبهة والبذخ ، على حين أن المسلمين كانوا يعانون من ذلك القلة والفقر ! ..

ومكان الدهشة في الأمر ، أن تجد المسلمين بعد هذا كله ـ وهم سرية ليس فيها رسول الله ﷺ ـ مقبلين غير مدبرين ، لا يقيمون لكل هذه الحشود الهائلة أمامهم وزناً ، مع أنها ـ فيما يبدو ويظهر ـ لو التفّت من حولهم وطوقتهم من جهاتهم ، لانقلبوا إلى ما يشبه نواة صغيرة في جوف قطعة أرض سوداء ! ..

ثم إن مكان الدهشة بعد ذلك ، أن يصمد المسلمون لقتال هذا اليمّ المتلاطم . يقتل أميرهم الأول ، ثم الثاني ، فالثالث ، وهم يقتحمون أبواب الشهادة في نشوة بالغة وإقبال عجيب ، حتى يدخل الرعب الإلهي في أفئدة كثير من المشركين ، دون أن يكون له سبب ظاهر ، فينكشفون عن مواقعهم ويدبر منهم الكثير ، وتقتل منهم خلائق لاتكاد تحصى ! ..

ولكن الدهشة كلها تزول ، والعجب ينتهي ، إذا تذكرنا ما يفعله الإيمان بالله ، والاعتماد عليه ، واليقين بوعده .

بل إن المدهش بالنسبة للمسلمين ـ إذا كانوا مسلمين ـ أن لا يكونوا كذلك والعجيب فيهم حقاً ، أن يكونوا مسلمين ثم يكون لأرقام العدد والعدّة حساب مع ذلك في أفكارهم ، إلى جانب ما وعد الله به من نصر وتأييد ، أو جنة ونعيم خالدين ! .. فالمسلمون ـ كما قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ـ لا يقاتلون بعدد ولا قوة ، ولا كثرة ، وإنما يقاتلون بهذا الدين الذي أكرمهم الله به .

ثم إن هذه الغزوة ، تنطوي ، على عظات ودلالات باهرة كثيرة ، نذكر منها ما يلي :

أولاً : دلت توصية النبي ﷺ ، على أنه يجوز للخليفة أو رئيس المسلمين أن يعلق إمارة أحد الناس بشرط وأن يولّي المسلمين عدة أمراء بالترتيب ، كما فعل النبي ﷺ في تولية

زيد ثم جعفر ثم عبد الله بن رواحة ، قال العلماء : « والصحيح أنه إذا أمر الخليفة بذلك فإن ولاية الكل تنعقد ، بوقت واحد ، في الحال ، ولكنها لاتنفذ إلا مرتبة »[٤٣] .

ثانياً : دلت توصية الرسول ﷺ أيضاً ، على مشروعية اجتهاد المسلمين في اختيار أميرهم ، إذا غاب أميرهم ، أو وكل إليهم الخليفة اختيار من يرون . وقال الطحاوي : « هذا أصل يؤخذ منه أن على المسلمين أن يقدموا رجلاً إذا غاب الإمام يقوم مقامه إلى أن يحضر » . كما دلت هذه التوصية على مشروعية اجتهاد المسلمين في حياة النبي ﷺ .

ثالثاً : لقد رأيت أن النبي ﷺ نعى لأصحابه زيداً وجعفر وابن رواحة وعيناه تذرفان وبين رسول الله ﷺ وبينهم مسافات شاسعة بعيدة ! ..

وهذا يدل على أن الله تعالى قد زوى لرسوله الأرض ، فأصبح يرى من شأن المسلمين الذين يقاتلون على مشارف الشام ، ماحدث أصحابه به ، وهي من جملة الخوارق الكثيرة التي أكرم الله بها حبيبه ﷺ .

كما يدل هذا الحديث نفسه على مدى شفقته على أصحابه ، فلم يكن شيئاً قليلاً أن يبكي رسول الله ﷺ وهو واقف في أصحابه يحدثهم عن خبر هؤلاء الشهداء . وأنت خبير أن بكاءه ﷺ عليهم ، لا يتنافى مع الرضى بقضاء الله تعالى وقدره فإن العين لتدمع والقلب ليحزن ـ كما قال عليه الصلاة والسلام ـ وتلك رقة طبيعية ورحمة فطر الله الإنسان عليها .

رابعاً : وحديث نعيه ﷺ لهؤلاء الشهداء الثلاثة ، يسجل فضلاً خاصاً لخالد بن الوليد رضي الله عنه ، فقد قال لهم في آخر حديثه : « حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح عليهم » . وتلك أول وقعة يحضرها خالد رضي الله عنه في صف المسلمين ، إذ لم يكن قد مضى على إسلامه إلا مدة يسيرة . ومن هنا تعلم أن الرسول ﷺ ، هو الذي سجل لقب سيف الله ، لخالد رضي الله عنه .

ولقد أبلى رضي الله عنه ، في هذه الغزوة بلاء رائعاً ، روى البخاري عنه رضي الله عنه قال : « لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية » . قال ابن حجر : وهذا الحديث يدل على أن المسلمين قد قتلوا من المشركين كثيراً .

---

(٤٣) انظر فتح الباري : ٣٦١/٧

هذا ، وأما سبب قول الناس للمسلمين بعد رجوعهم إلى المدينة : « يا فُرّار ، فررتم في سبيل الله » ، فهو أنهم لم يتبعوا الروم ومن معهم في هزيمتهم ، وتركوا الأرض التي قاتلوا فيها كما هي ولم يكن ذلك شأنهم في الغزوات الأخرى ، واكتفى خالد بذلك فكرّ عائداً إلى المدينة . ولكنه كما رأيت كان تدبيراً حكيماً من خالد بن الوليد رضي الله عنه حفظاً للمسلمين وهيبتهم التي انطبعت في أفئدة الروم ، ولذلك ردَّ النبي ﷺ عليهم قائلاً : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار ، إن شاء الله » .

فتح مكة

وكان ذلك في شهر رمضان سنة ثمان من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة .

وسببها أن أناساً من بني بكر ، كلموا أشراف قريش في أن يعينوهم على خزاعة بالرجال والسلاح . (وخزاعة كانت قد دخلت في عهد المسلمين) ، فأجابوهم إلى ذلك ، وخرج حشد من قريش متنكرين متنقبين ، فيهم صفوان بن أمية ، وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ، فالتقوا مع بني بكر في مكان اسمه الوتير ، وبيتوا خزاعة ليلاً وهم مطمئنون آمنون ، فقتلوا منهم عشرين رجلاً . وعندئذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة ، فقدموا على رسول الله ﷺ يخبرونه بما أصابهم ، فقام وهو يجر رداءه قائلاً :

« لا نُصرتُ إن لم أنصر بني كعب ، مما أنصر منه نفسي » وقال : « إن هذا السحاب ليُستهلُّ بنصر بني كعب »[٤٤] .

(٤٤) روى ذلك ابن سعد وابن إسحاق . وهذا النص من رواية ابن سعد . قال ابن حجر : ورواه البزار والطبراني وموسى بن عقبة ، وغيرهم ..